لن نقف عند هذه المرحلة الطويلة التي تحتاج لتفصيلات أوفى ، بل سنتخطاها لمرحلة اكثر اهمية بالنسبة لتتبعنا للظواهر الملحمية التي سبقت المسرح الحديث ومهدت له . وسنجد ان انتاج الحركة الرومانتيكية في المسرح ـ ودلالته الادبية والشعرية اكبر بكثير من دلالته المسرحية ـ ينطوي على ظاهرة نلاحظ استمرارها في الدراما الملحمية الحديثة بين الناحيتين الشكلية والموضوعية ، الا وهي ظاهرة التأمل الذي يوقف الحدث ويكسر حاجز الخيال او يقوم بتحطيم الوهم . واوضح مثل على هذا هي مسرحية الشاعر الكاتب الرومانتيكي لودفيج تيك (١٧٧٣ ـ ١٨٥٣) المعروفة « القط ذو الحذاء » (١) اذ نجد حدوتة الاطفال المشهورة تتحول الى مناسبة لتوجيه النقد والسخرية بحركة التنوير وتكلف كتاب المسرح وغباء الجمهور .. الخ ويستمر التحطيم للوهم المسرحي بحيث تبدو مستويات الوهم والواقع المختلفة وكانها مسرح يكشف القناع عن نفسه او يؤكد انه ليس الا مسرحا او تمثيلا في تمثيل ! بهذا يظهر الواقع والتمثيل في صورتين ، نبدو احداهما لدى الممثل الذي يكسر الموقف المسرحي ويخترق الخشبة متجها بحديثه للجمهور ، وتبدو الاخرى لدى الجمهور الذي لا يتوقف عن توجيه تعليقاته او صفيره للممثلين فيكسر بدوره حاجز الوهم! ومن الصعب القول بان الامر هنا يقتصر على تذويب الشكل وحده ، فالمضمون ايضا يذوب معه ، وتصبح المسالة كشفا مستمرا للاقنعة يتعذر تفسيره من الناحية انجمالية الصرفة . ولعل التفسير الذي قدمه جورج لوكاتش لهذه الظاهرة من الناحية التاريخية والاجتماعية ان يكون هو اصح تفسير لها . فهو يرى ان الرومانتيكية جاءت في عصر هرب من مواجهة الواقع التاريخي للثورة الاجتماعية ، ولهذا انقلبت لديه العاطفة الى نوع من التهكم والمعارضة والسخرية التي تحاول ان تخلق من موقف النفي الذي وقفته لونا من الواقع تعويضا عن الواقع التاريخي الذي هربت منه الى الخيال . ويزداد هذا التفسير وضوحا اذا القينا نظرة على بقية المسرحيات الرومانتيكية ، ورأينا كيف يثقل السرد الملحمي والشاعرية انفنائية القائمان على العاطفة والشعور البحت مشاهد هذه المسرحيات وفصولها ، بحيث تعطل التأثير المسرحي بل تلغيه الغاء . وليس مرجع هذا الى ادخال الراوية ـ كما في مسرحية تيك الاخرى « حياة وموت القديسة جنيفوفا ـ ولا الى ترتيب المشاهد العديدة بجانب بعضها البعض بشكل تاريخي ، ولا نثر القصائد والاغنيات هنا وهناك ، ولا تغيير المكان والوثب من زمن الى آخر ـ فقد تزيد هذه الوسائل جميعا من فاعلية التأثير المسرحي ولا تقلل منه ـ بل مرجعه الى ان « الحكاية » في هذه المسرحيات الرومانتيكية تقوم على موقف شعري خالص ، بحيث يصبح تغيير المكان وسيلة للتناول العاطفي المثالي، كما يصبح الحدث سببا لخلق الموقف الشعري. ولهذا كان العنصر السائد في هذا المسرح هو « الجو العام » والمناظر الزخرفية الجانبية ، كما ان الخوارق والمصادفات تتحكم في تكوين مشاهده ، ويكثر استخدام الرمز والاستعارة والموسيقى بتأثير من كالديرون الذي اساء الرومانتيكيون فهمه (وان كانوا قد ترجموه فيما ترجموا من روائع !) . وخلاصة القول ان الواقع التاريخي والمسرحي أفلت من أيدي الرومانتيكيين ، وكان لا بد من الانتظار حتى يأتي نفر من المتأخرين الذين أتقنوا فن التهكم والسخرية والمعارضة بعد ان ملكوا رؤية أعمق وأشمل للواقع والتاريخ ..

★ ★ ★

اذا كانت ارض المسرح قد زلقت تحت اقدام الرومانتيكيين ، فقد ثبتت تحت اقدام كاتبين لهما دور خطير في تاريخ المسرح الحديث وهما

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

(١) Der gestiefelte kater

الطريق الى الوالدة

لاسمك رائحة الحزن والياسمين ،
ورائحة الامم البائدة
فهل أتوقف حينا ،
والفي الفراقا
وأعقد مع صمتك الكارثي اتفاقا
ونهوي على شرفات البكاء قليلا ،
ونجمع ايامنا الشارده ؟
ولاسمك رائحة الموت أيتها المراة الماردة !
فماذا عن الطقس والحالة الباردة ؟!
ـ تعودت ...
ـ لماذا أراك تموتين ؟
لا .
انت لا يعرف الموت دربا اليك ،
ولكن لماذا أراك تنامين مكشوفة ،
في العراء ؟!
تنامين وحدك كالشاهدة .
وكيف تبيعين نفسك للغرباء
وترضين صك انتدابك للقبّعات ،
وللعملة الوافدة
وتنسين ابنك في مهرجان البكاء ،
ـ وحيدا
ولا تمنحين سوى السحنة الجامدة
فهل أنت مأواي ،
هل أنت امي التي أرضعتني الحليب ،
وأقرحها برق ايامنا الواعدة ؟
وما الفائدة ؟
اذا كنت تسقينني الآن ، مر العذاب ،
تدعينني نحو كل المنافي ،
وأنت على ارثنا قاعده !
لمن أقرأ الان من دفتر الجوع ،
آخر ما سطّر الفقراء
وما جرّع القلب او كابده ؟
وكنت أسير غيابك ،
سجلت اسماء كل المقاهي التي رفضتني ،
وكل النساء اللواتي عرفت ، واحببت ،
خلينني للتسكع في خدمات الشوارع .
والمدن الجاحدة .
تبارك هذا الشجي والحضور
تبارك هذا البعاد ، وحذر المرور
تبارك هذا الطريق الجديد الى الوالدة

محمد القيسي